صوم رمضان

بقلم أ.د. عبدالحميد أبوسليمان

لا شك أن قضية صوم رمضان هي من أهم القضايا التي يثيرها ويفرضها ويستوجب الفكر فيها في هذا العصر، معرفة حقيقة أن الأرض كروية متحركة.

وفي ظل تطورات العصر وتنامى إمكاناته بما في ذلك اختراع الساعة جنباً إلى جنب مع بقية التطورات العلمية وامكاناتها، خاصة في مجال المواصلات بكل أشكالها، من السيارات، إلى الطائرات، وما قد يستجد من الحركة الصاروخية، إضافة إلى ما نحياه ونفاجأ به من ألوان التواصل الآلي على بعد المسافات، بدءً بالتلفون، وما تلاه من أنواع التواصل الإلكتروني صوتاً وصورة، ومع أي إنسان آخر في أي جزء من بلاد الأرض، إضافة إلى ما غزا كل دار في المعمورة من ألوان الترفيه والإعلام من إذاعة وتلفزيون، وما يتربع في حجر صغير وكبير من ألوان التواصل والمعلومات الإلكترونية وسواها، مما جد وسيجد، في هذه

المجالات(**وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ) سورة النحل الآية (8)** وكل هذا مما لم نكن نعلم من وسائل الركوب والتواصل.

فإذا أضفنا إلى ذلك، إمتداد الإسلام والوجود الإسلامي، إلى ما وراء المنطقة المدارية، حيث يكون تفاوت ساعات الليل والنهار في الخريف والربيع تفاوتاً محدوداً، إلا أن تفاوت ساعات الليل والنهار في فصلي الصيف والشتاء، كبير مرهقاً بعض الشيء.

وهكذا يظل الصيام في فصل الشتاء مقبولاً، أما في فصل الصيف فيكون الصيام صعباً خاصة لمن كان عمله شاقاً، وقد يصعب تصوره لو اقتضت الضرورة أن يكون في قيظ الشمس.

هذه الأوضاع، هي مما دعى وجرّأ أحد حكام إحدى دول منطقة البحر المتوسط الإسلامية المدارية أن يأمر شعبه بعدم صوم رمضان لما في ذلك، كما أدعّى، من مشقة على العاملين وبالتالي يؤثر ذلك على العمل والانتاج، كما قال.

هكذا نرى أن من الواضح أننا في عصر جديد بإمكانات، وقدرات، وحاجات عديدة، تؤثر على نوعية الحياة بشكل غير مسبوق.

ولا أنسى أن أحد المسؤولين في إحدى الملحقيات الثقافية في بريطانيا والتي يدرس فيها مئات ألوف الطلاب من العالم الإسلامي، وذلك يستوجب بالطبع عملاً متواصلاً في حل إشكالاتهم، ومتابعة تحصيلهم الدراسي، في جامعات تلك البلاد، وعجبت حين رأيته يأتي إلى

مدينة صحراوية كبرى، من مدن الخليج، وذلك ليصوم رمضان، في داره بها، رغم جوها الساخن بل وأحياناً المحرق والذي تحت أشعة الشمس يشوي الوجوه.

ولذلك سألته، وكأنني أسأل من فقد عقله، ما الذي أتى بك من"لندن" لتصوم في هذا القيظ اللافح الذي يسجنك في الغرف المكيفة.

أجابني إجابة مفاجأة لي، حين قال: كيف لا آتي وساعات اليوم في لندن، هي حوالي"ثمانية عشر ساعة"، مع عمل جاد مرهق في خدمة الشباب المنتسب إلى الجامعات، في جميع أنحاء بريطانيا "المملكة المتحدة".

وبالطبع فإننا نعلم أنه كلما ابتعدت البلاد عن المنطقة الاستوائية التي يتعادل فيها النهار والليل، أياً كان هذا الابتعاد إلى الشمال أو الجنوب، فإن طول الليل والنهار يزدادان تفاوتاً طولاً وقصراً، حتى يصلان في المنطقة القطبية أن ظلام يستمر في فصل الشتاء ستة أشهر متواصلة، وفي فصل الصيف– في ذات المنطقة– يستمر الضوء ستة أشهر متواصلة.

وحتى في المنطقة المدارية التي يقع فيها الحَرمان الشريفان بمكة والمدينة، فإن تفاوت ساعات النهار واقع ملموس إلا أنه يظل تفاوتاً محتملاً. وإن كان هذا التفاوت، يظل مرهقاً بعض الشيء للعاملين، حين يكون الصوم في الصيف، بل وشاقاً إذا كان تحت قيظ الشمس.

ولما كان المسلمون في المنطقة المدارية، في العصور السالفة، لا سبيل لهم لمعرفة الأوقات، إلا بالنظر إلى الظاهرة الشمسية، فكان تتبع الحركة الشمسية إشراقاً وغروباً، هما أداة الإنسان لمعرفة أوقات النهار والليل.

وهكذا كان الصيام عند المسلمين في بلاد هذه المنطقة يبدأ من الفجر وإشراق الشمس حتى غروب الشمس، وحلول الظلام والليل.

والقضية التي أود طرحها مستفتياً أجلاء علمائنا ومفكرينا وجمهور أمتنا المسلمة (وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ)، هو كيف يجب أن نتعامل مع الوقت في هذا العصر، مع تفاوت ساعات " الليل والنهار"، في بعض المناطق إلى الحد الذي يصل فيه وقت النهار(ضوء الشمس) في المناطق القارية والقطبية إلى الساعة والساعتين في الشتاء، والاثنين والعشرين أو الثلاثة والعشرين في الصيف، بل إلى حد أن يصل في المنطقة القطبية إلى ستة أشهر ظلاماً متواصلاً، وستة أشهر ضوءاً متواصلاً، كما سبق أن ذكرنا.

وكما نعلم فإن هناك من المسلمين من يعيش في سيبريا من بلاد المنطقة القطبية الشمالية حيث لا يكادون يرون الشمس في الشتاء لمدة ستة أشهر وتكاد لا تغيب الشمس في بلادهم لمدة ستة أشهر.

وكما نعلم على أي حال فإن النهار في أقصى الأرض في القطب الشمالي الذي يرتاده الإنسان مسلماً وغير مسلم، حتى الآن، لأهداف جلها علمي، وبذلك يتعرض المسلم إلى حال يستحيل معه، اعتباراً الضوء والظلمة، له أي علاقة بتوقيت شعيرتي الصلاة والصوم.

ومن المعلوم لنا أيضاً أن هناك قبائل بشرية شمال القارة الأمريكية تعيش حياتها في المنطقة القطبية ومنها قبائل الاسكيمو، وليس هناك ما يمنع بعض أبناء هذه القبائل من الإسلام لو بلغها واهتم الدعاة بها ممن هم قادرون على ارتياد المناطق الشديدة البرودة والشديدة التطرف في تفاوت أوقات "الضوء والظلمة" مما لا اعتبار فيها لحركة الظاهرة الشمسية أي في أداء شعائر الصلاة أو الصيام.

<u>تحريك مدة الصيام شمالاً وجنوباً وفق الطاقة البشرية:</u>

والسؤال هنا لأجلاء علمائنا ومفكرينا وجمهور أمتنا كيف يكون صيام هؤلاء البشر في المناطق المتطرفة، وعلى أي أساس؟.

إننا جميعاً نعلم أن بريطانيا، والبلاد التي على شاكلتها حيث المسلمون اليوم في هذه البلدان يعدون بالملايين، وأن عليهم أن يصوموا "النهار" رغم طول ساعاته، خاصة في فصل الصيف، وقصر الليل الشديد، في فصل الشتاء، والذي هو حوالي الست ساعات.

وهذا الوضع في مثل هذه البلدان قد يدعو بعض المسلمين ممن رق دينهم، وشق عملهم، أن يترك الصيام، أو ربما يصوم بعضهم صوم الصيف قضاءً في فصل الشتاء حيث ضوء الشمس لا يظهر إلا لساعات تعد على أصابع اليد الواحدة؟

وإذا قبلنا وفق فتوى المفتين التي لا ينكرها عليهم أحد ممن لديه دراية علمية بطبيعة الكرة الأرضية فيما يتعلق بشأن الصيام مما يوجب تجاهل الظاهرة "الشمسية" لهؤلاء المسلمين الذين يعيشون في البلدان الشمالية أو الجنوبية المتطرفة التي قد يصل نهارها في منطقة القطبين إلى ستة أشهر وليلها كذلك، مما يحتم صوم رمضان حسب توقيت أقرب منطقة يكون تفاوت الليل والنهار فيها، أقل تطرفاً، مثل بريطانيا، التي قد يصل يومها في الصيف –كما سبق أن ذكرنا– إلى ثمانية عشر ساعة، وهو ولا شك أمر مرهق بشكل لا يطاق على أكثر البشر من العاملين.

كما أن الليل في ذلك البلد وأمثاله يقارب وقته في فصل الصيف في بريطانيا وأمثالها إلى الست ساعات فقط، لأداء كل ما يتعلق بالصلاة والسحور مما يجعل ذلك أيضاً أمراً مرهقاً متتابعاً لا يحقق أهداف الصلاة ولا الصيام الروحية والحياتية على الوجه الأمثل.

على ضوء ما سبق، من رؤية علمية لوضع عالمنا المعاصر وطاقاته وامكاناته وحاجاته، التي تجعله عصراً غير العصور السالفة، فإن منهج "تجديد الدين"، يحتم تدبر حال

العصر، وكيف يعاد تطبيق قيم الدين ومفاهيمه ومبادئه على واقع العصر وحاجاته وامكاناته زماناً ومكاناً، ليحقق مقاصد الدين بعلم واستنارة.

ودون العلم والحكمة، وإدراك معطيات العصر، وعلومه وقدراته واحتياجاته، غير المسبوقة في مسيرة الإنسانية، نجد أنفسنا نتخبط، وتتشعب بنا الطرق، خاصة بشأن صيام شهر رمضان، حتى في المنطقة التي بها جل الدول الإسلامية، بل وجميع الدول العربية، مما أغرى أحد حكام منطقة البحر الأبيض المتوسط المدارية، بأن يفتى ويأمر العاملين في بلده بالإفطار في رمضان.

ليس ذلك فقط، بل أننا رغم كل ما نعلمه من امكانات العلم، وأحوال الأرض، نجد حتى اليوم، أنه ما زال هناك من يحتم بدء شهر رمضان وانتهائه، برؤية الهلال البصرية البشرية المجردة، والذي قد تغم رؤيته لأسباب مناخية على البصر الإنساني المجرد.

وإذا كان هذا النوع من المعرفة مقبول في العصور السابقة بل أمر حتمي لا بد منه، وكان ذلك عامل من عوامل وحدة بين أبناء الأمة، لأن رؤية الهلال في كل منطقة، يعلم بها سكان المنطقة، وهم سوف يبدءون وينهون صيامهم في وقت واحد وفقاً لذلك، ولن يعلموا بأن أي بلد آخر قد اختلفت رؤيته عن رؤيتهم، إلا بعد انقضاء الأشهر، أو أكثر من ذلك، وذلك حين تصل قوافل الركبان على ظهور الإبل بالأخبار.

أما اليوم، فإننا مع تقدم العلوم والمعارف، وامكانات التواصل الآني العديدة، التي جعلت معرفة ولادة الهلال بالشروط الشرعية أمر يمكن معرفته بالحساب العلمي الفلكي على وجه الدقة، بغض النظرعن الظروف المناخية الجوية المعوقة لرؤية العين البشرية.

بل إن الرؤية في أحسن الأحوال، ليست رؤية جميع أبناء المنطقة، بل هي رؤية الآحاد، يتقبلها الجميع، في البلد أو المنطقة المعنية، رغم أنهم لم يروا الهلال.

وعلى عكس رؤية العين المجردة، فإن دقة حساب حركة الشمس وما حولها من الكواكب، والتي منها القمر، هو أمر نشهده ونلمسه ومن ذلك حين يتنبأ الفلكيون، بقدرتهم العلمية، بأمر الظواهر الفلكية قبل وقوعها، بالعقود من السنين بل وبمئات السنين.

فالفلكيون على سبيل المثال يستطيعون أن يتنبأوا بوقوع ظواهر الكسوف والخسوف، ورؤيتها في أي وقت، وفي أي المواقع من الأرض وعلى أية صورة.

والسبب في ضعف الاعتداد بالرؤية البشرية في هذا العصر، هو أنها ليس فقط عرضة للقصور والخطأ بل قد تفرق أمر الأمة، لأنه ربما تختلف قدرات الرؤى البشرية في بدء الشهور وانتهائها بما في ذلك رمضان، على غير حسابات علم الفلك التي لا تقبل الإختلاف، وهنا يقع الخلاف وحس الفرقه بسبب أن أي قرار في أي بلد بشأن الرؤية سوف تنقله في الحال وسائل الإعلام الحديثة، إلى جميع أرجاء الأرض في التو واللحظة، فإذا ما تعددت قرارات الرؤية من بلد مسلم إلى بلد مسلم آخر. وبذلك يعلم الناس جميعاً، أن هناك من البلاد الإسلامية، ممن

اعتمدوا رؤية العين المجردة، وأن هناك بلد أو بلاد أخرى في الجوار، في المنطقة الواحدة، من اختلفت معهم رؤاهم وتعارضت لاعتمادهم الحساب الفلكي بشأن تقرير بدء شهر رمضان، أو انتهائه.

وهذا لا يخدم حس وحدة الأمة، وقد يكون ذلك عنصر فرقة وتنازع.

والسؤال الآن هو: ألا يمكن في هذا العصر، بحاجاته وامكانياته، أن نحل كل هذه المفارقات على تعددها وتشعبها وتعارضها مع أهداف فريضتي الصلاة والصيام ومع تعميق حس وحدة الأمة، وذلك بأن نلجأ إلى العلم، لكي نحقق مقاصد الشريعة، وقيم الإسلام ومفاهيمه ومبادئه، بما يناسب هذا العصر.

هل هذا أولى؟ أم أنه لا بد لنا من التقليد، والمتابعة لعصور سالفة، حالها غير حال هذا العصر، وحاجاتها غير حاجاتنا وامكاناتها غير امكاناتنا.

ولب ما أراه واستفتي فيه أهل العلم والمعرفة والفكر وجمهور الأمة هو هل بإمكانات العلم(الحساب الفلكي) وقدرات وسائل الإعلام في نقل الأخبار في التو واللحظة إلى كافة أرجاء الأرض، أن نقبل أحد حلين لإزالة الحيرة والتنازع بشأن إشكالات أداء فريضة الصيام في هذا العصر، ونحسن الدعوة بذلك إلى الإسلام، وسماحة الإسلام، ويسر الدين، وتقبله دون غبش.

الحل الأول: أما وقد قبلنا بنقل توقيت الصيام مثله في ذلك مثل الصلاة بدءً وانتهاءً إلى أقرب منطقة، يقدر الانسان احتمال طول النهار والليل فيها. وأمام هذا الحل، الذي أفتى به أجلاء

من علماء الأمة ومفكريها، ألم يصبح من المقبول أيضاً، أن نأخذ بدلاً من ذلك توقيت مكة والمدينة (المنطقة المدارية)، لأداء فريضة الصوم، لأنها رغم اختلاف ساعات الليل والنهار فيها، فإنها مظنة أن يكون هذا التوقيت مما يناسب جميع بلاد المسلمين في العالم رغم أن في هذا التوقيت بعض المشقة للناس، إلا أنه ما يزال محتملاً.

الحل الثاني: وبذات المبدأ في تجاهل الظاهرة الشمسية، وتحريك شأن التوقيت إلى توقيت أقرب منطقة، يكون التوقيت الشمسي محتمل ولو بشيء من المشقة، مثل توقيت بريطانيا، مقارناً ببلاد أقصى قارات آسيا وأوربا وأمريكا.

والسؤال هو: ألا يمكن اعتماد منطقة خط الاستواء، الذي يقسم ساحة الأرض جميعها إلى قسمين متساويين هما شمال الأرض وجنوبها، وذلك بدلاً من اعتماد المنطقة المدارية، ليكون توقيت المنطقة الاستوائية هو توقيت أداء فريضة الصيام، في جميع أنحاء المعمورة، وبذلك فإننا نسوى بين المسلمين في جميع أنحاء المعمورة، في صوم ساعات أيام رمضان.

أليس في هذا الحل ما يُمكّن من الاستفادة من الإمكانات العلمية، وتأثير آلة"الساعة" التي تحدد الأوقات، دون حاجة إلى الظاهرة الشمسية، التي تعجز عن أداء مهمة التوقيت، في جميع أرجاء الأرض، في هذا العصر؟

بهذا الحل يتوحد ويتساوى بدء صوم اليوم إلى انتهائه، أينما يكون المسلم في أرجاء الأرض، ليكون اثنتى عشرة ساعة، والذي فيه مزيد من التوحيد والتيسير وتحقيق مقاصد الصيام لجميع المسلمين في جميع أرجاء الأرض شمالاً وجنوباً، مهما تطرف الموقع.

وهكذا فإن من ينتقل من أي موضع في الأرض إلى أي موضع آخر يتساوى عدد ساعات صيامه مع جميع من في الأرض من المسلمين حيثما كانوا، لا أن يتفاوت صيام يوم نفس الفرد بعد رحلة بالطائرة لعدة ساعات إلى بلد مثل بريطانيا عما كان عليه، على سبيل المثال وهو في (جاكرتا) أو(كمبالا) والعكس بالعكس. فما الحكمة في ذلك، والشخص هو نفس الشخص إلاّ أن موقعه من الأرض تغير ليكون للأول(جاكرتا) أو(كمبالا) يسر وللآخر(بريطانيا) مشقة وعسر؟!

إن هذه الرؤية" الاجتهادية"، فيما أرى هي مما يقوي لحمة الأمة، وحس وحدتها وييسر عليها أمر حياتها، وحسن أداء شعائرها، وتحقيق غاياتها الروحية والحياتية ويتناسب مع طبيعة العصر وإمكاناته.

كل هذه الرؤى، والنظرات، والخواطر الاجتهادية، التي خطرت بذهني هي نتيجة التأمل، في أحوال العصر، وحاجاته، وامكانياته، الزمانية والمكانية.

ومن المهم أن ندرك أن هذا الحل، لا يؤثر على مكانة المسجد الحرام وقدسيته: يقول الله سبحانه وتعالى: (قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ

الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ) سورة البقرة الآية{144}

ويقول الله سبحانه وتعالى : (وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ) سورة البقرة الآية{150}

الخاتمة:

وحرصاً على بذل الجهد، ومشاركة ما أرتأيته من الفكر والرأي، مع أجلاء رجالات الأمة، من العلماء، والمفكرين، ومع جمهور الأمة الملتزمين المستنيرين، لهذا طرحت هذه الرؤية "الاجتهادية" مستفتياً جميع هؤلاء، للنظر في هذه القضية المستجدة المهمة، وسواها من القضايا المماثلة في هذا العصر، بكل الجد والجدية فالدين يسر لا عسر(ولا تجمع أمتي على ضلالة).

فليس لي ولا لسواي إلاّ ما يراه أهل العلم والفكر المستنير ويجتمع عليه جمهور الأمة المستنير.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين